6

سفينة الأصدقاء

مع الجمل

فى بلاد العرب

تأليف : سامى البجيرمى

رسوم : محمـــد فايـــد

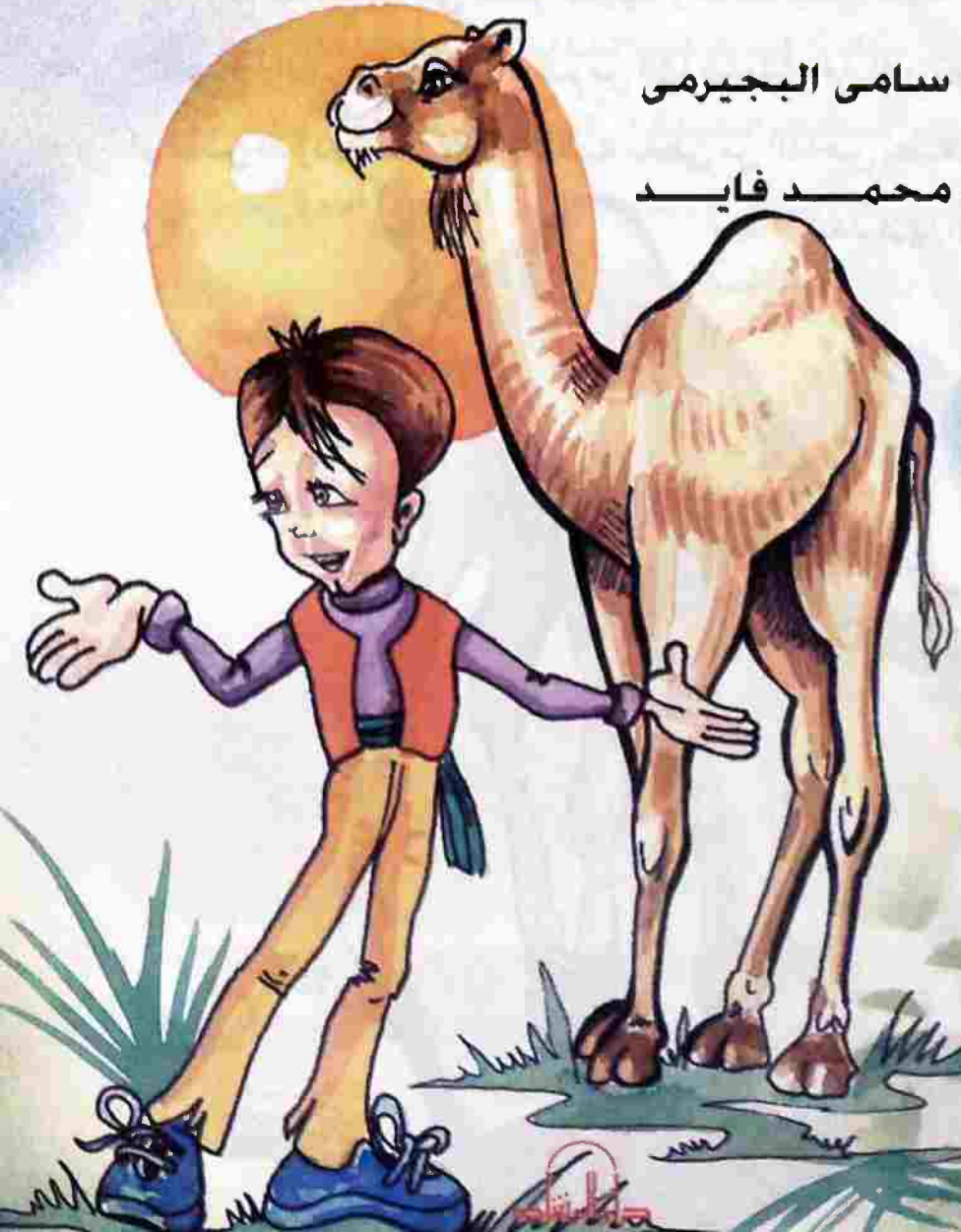

سَألَ مُحَمَّدٌ : « أينَ نَحْنُ ؟ » .

رَدَّ الجَمَلُ :

« نحنُ فى شِبْهِ الجَزيرةِ العَربيَّةِ » .

وكانَ الجَمَلُ وهو سَائرٌ فى طَريقِه يَثْنِى رَقَبتَهُ الطَّويلةَ ، لِيَلْتقطَ النَّباتاتِ الشَّائكةَ التى يَعثرُ عَلَيها وكانتْ تَبْدُو عَليهِ عَلاماتُ الابْتِهاجِ والسُّرورِ بِهَا ؛ وبالرُّغْمِ مِنْ أنَّها شَديدةُ الجفَافِ ، فأشْوَاكها لم تَكُنْ لتُؤذيه مُطْلَقاً ، لأنَّ فَمَه مُغَطًّى مِنَ الدَّاخِلِ بطَبقةٍ جَامدةٍ لا تَنْفُذُ فِيها الأَشْواكُ .

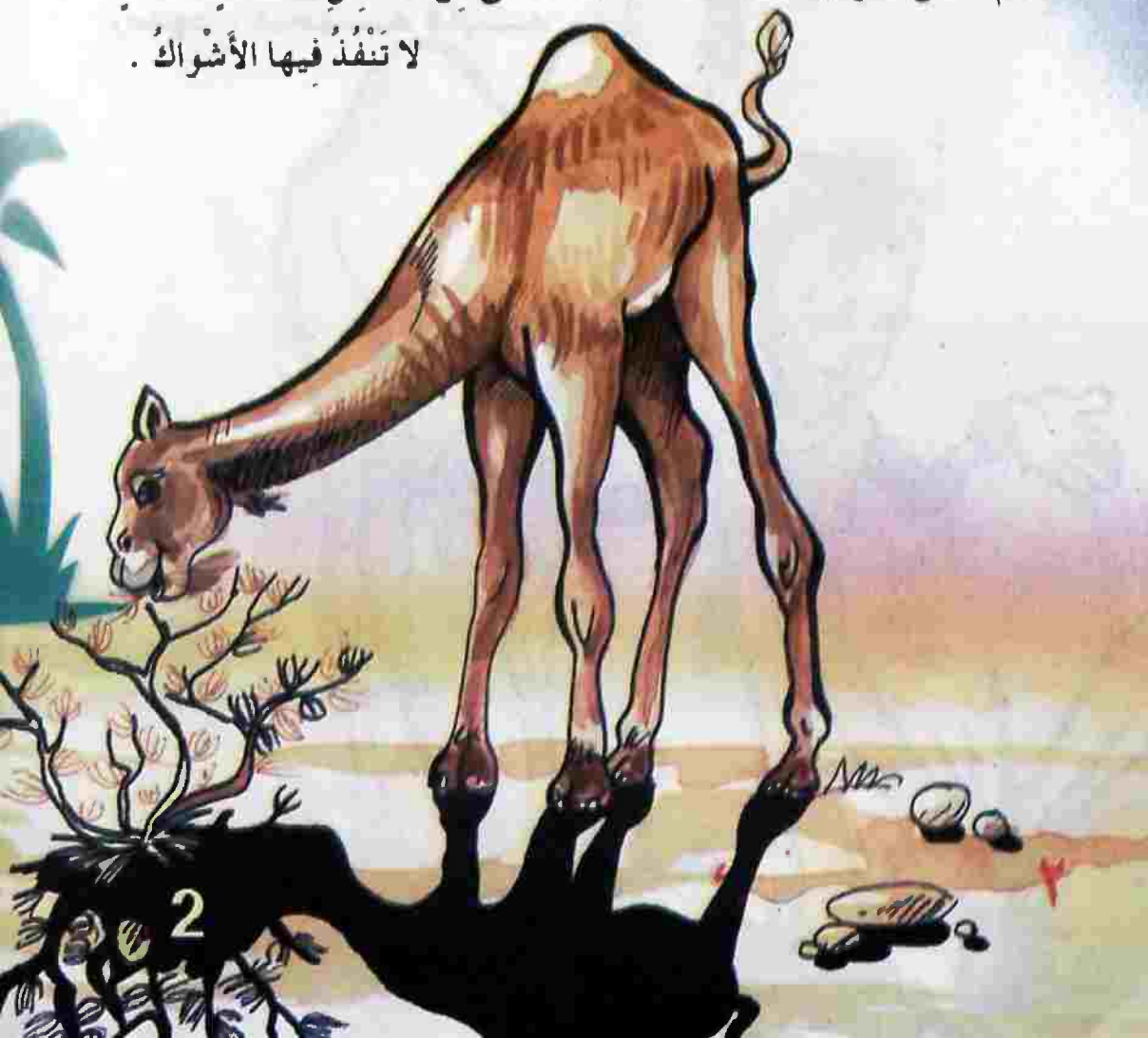

وبَيْنمَا هُمَا كذلك ، إذِ الْتفتَ الجَمَلُ إلى مُحَمَّدٍ قائلاً :

« إنَّنى آكلُ وأنا سَائِرٌ فى طَرِيقِى .. فى الحقيقةِ إنى آكُلُ كُلَّما كَانَ ذَلكَ مُمكِناً ، فربَّمَا تمرُّ أيَّامٌ فى الصَّحْراءِ دُونَ أنْ أجِدَ شَيئاً سِوَى الصُّخُورِ والرَّمْلِ والحَصَى والتُّرابِ ...

ولذلكَ يتحوَّلُ جُزءٌ مِنْ غِذَائى إلى دُهْنٍ يُخزَّنُ فى (سَنَامِى) حَتَّى إذا كنتُ فى مكانٍ لا نَبَاتَ فيه تَغَذَّيتُ مِنْ هذا الدُّهن ، فإذا طالَ السَّفَر ، ولمْ أجِدْ غِذاءً استَهلكتُ كمِيَّةً كبيرةً منْهُ ، فيُصبحُ ظَهْرِى مُسَطَّحاً تقْرِيباً ، وأسْتَطِيعُ ـ ماعَدَا ذلكَ ـ أنْ أُخزِّنَ الماءَ فى مَعِدَتى ، فأسافرُ عِدَّةَ أيامٍ دُونَ أنْ أحتاجَ إلى الماءِ ».

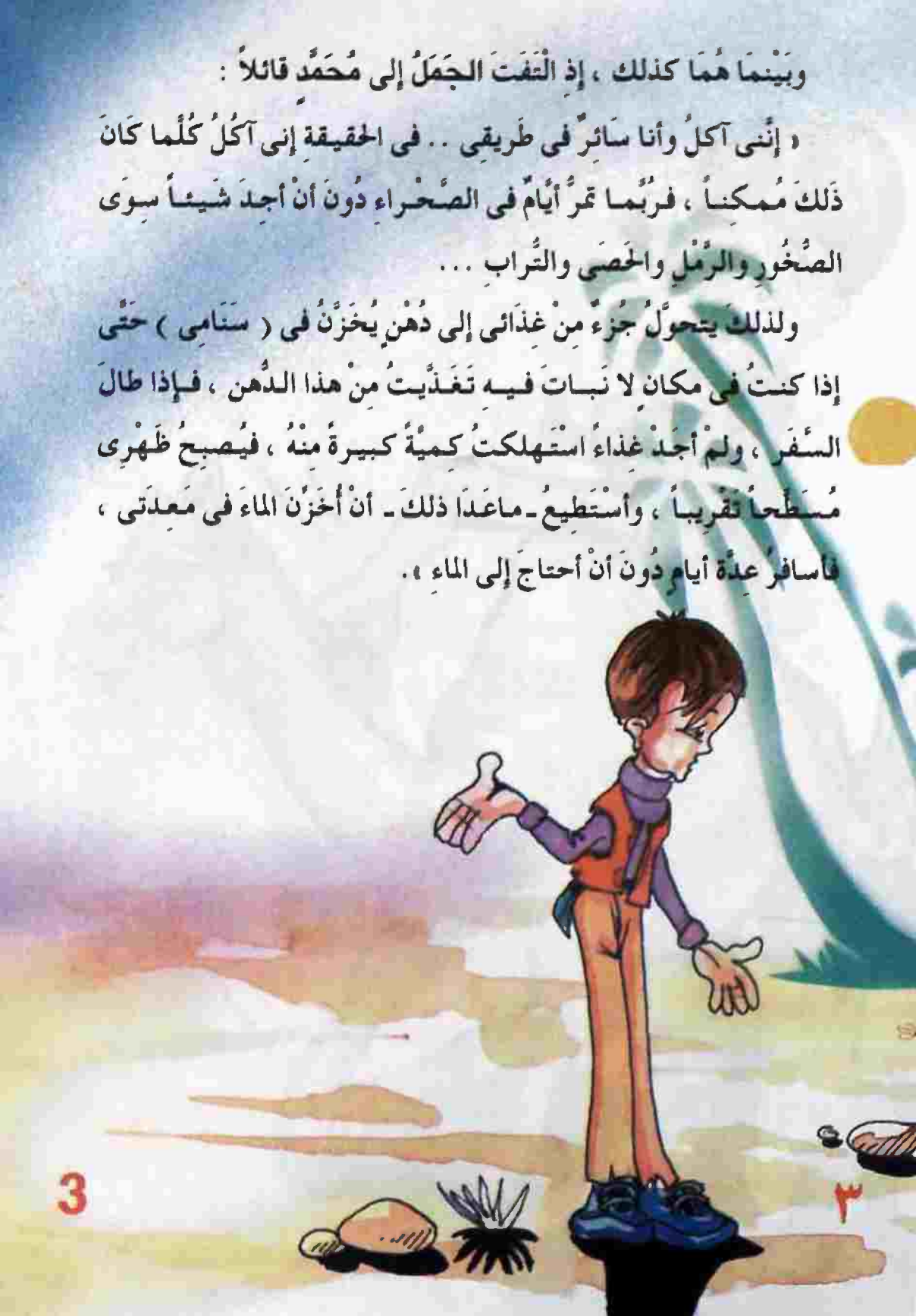

نظرَ مُحمَّدٌ حولَه ، فرأى السَّماءَ صافيةً لا سَحابَ فيها ، والشَّمْسَ شَديدةً مُحْرِقةً ولَمْ يَقَعْ بَصَرُهُ على بُيوتٍ أو خِيامٍ أو نَباتٍ أو بَشَرٍ .. فالتفتَ إلى الجَمَلِ قائلاً :

« هَذا مَكانٌ لا أحدَ فيهِ !! فأينَ العَرَبُ الَّذينَ يَعيشُونَ هُنا في الصَّحْراءِ ، ونَسْمَعَ عَنْ بُطولاتِهِمْ ؟! » .

رَدَّ الجَمَلُ :

« نَحنُ لا نَبعدُ عَنهُمْ كَثيراً ، وسَآخُذُكَ إليهِمْ » .

ثُمَّ « بَرَكَ » الجَمَلُ ، وطلبَ مِنْ مُحَمَّدٍ أنْ يَركَبَ على ظَهْرِهِ ، ونَهضَ بِهِ على رِجْلَيهِ الخَلْفِيَّتَينِ أوَّلاً .

وكادَ محمدٌ أنْ يَقَعَ مِنْ على ظَهْرِهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، لَوْلاَ أنَّه أَمْسَكَ بالسَّنَامِ .

وأَسْرَعَ الجَمَلُ فَوقَفَ على قَدَمَيهِ الأَمَامِيَّتَينِ ، وأخذَ يَسيرُ بِخُطواتٍ واسِعةٍ ، ويَهتزُّ في حَرَكَتِهِ ، فكانَ مُحَمَّدٌ يَميلُ مِن جانبٍ لآخرَ ، حتَّى بَدأَ يشْعرُ بالدُّوارِ .

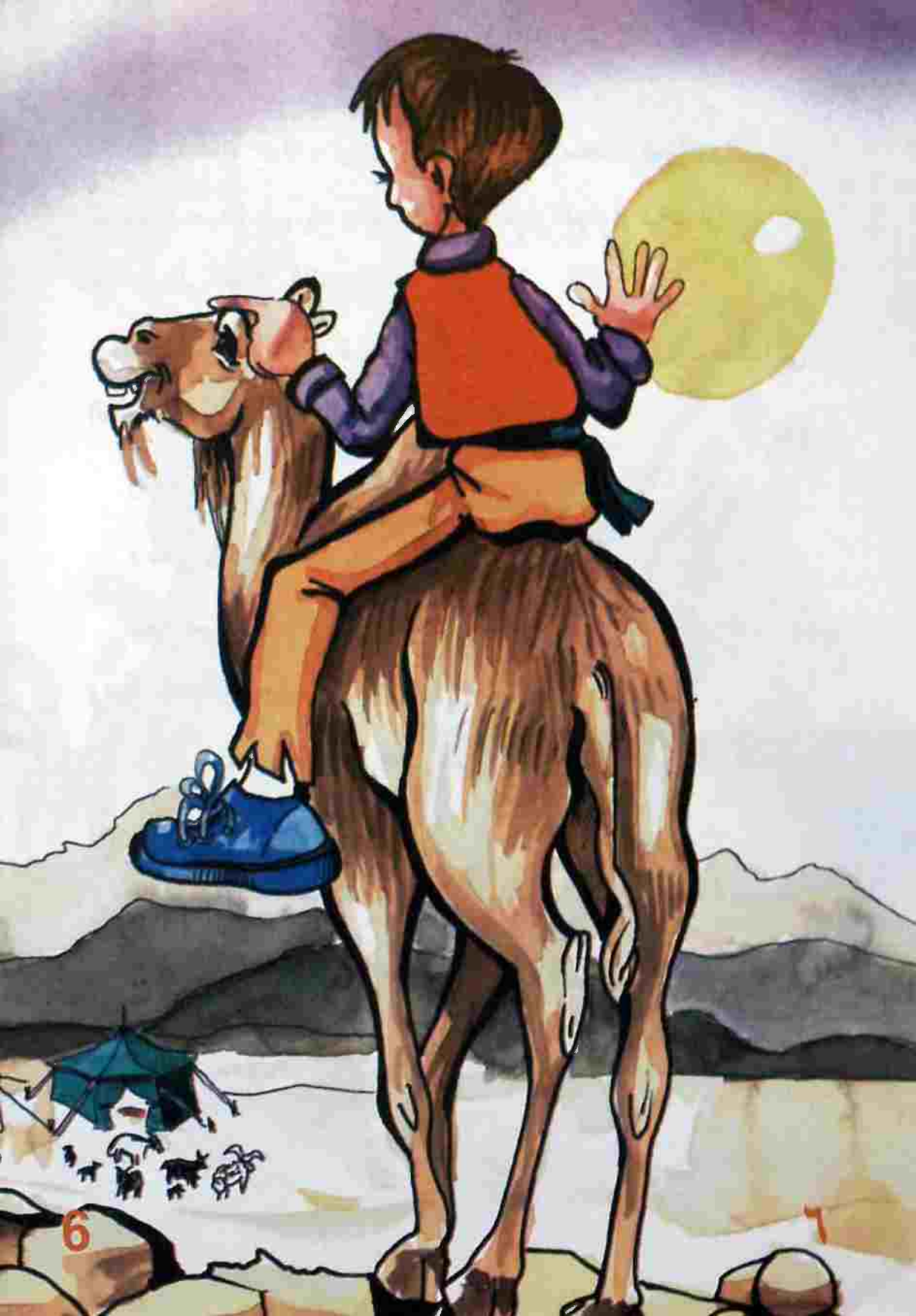

وبَعْدَ قَليلٍ الْتَفَتَ إليه الجَمَلُ قائلاً :

« أبْشِرْ !! إنَّنا قَريبُونَ مِنْ مُخيَّمٍ للعربِ !! » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وكيفَ عَرَفْتَ ذَلكَ ؟ » .

قَالَ الجَمَلُ : « ألا تَرى هَذه الضَّأنَ والماعِزَ التى تَرْعَى أمَامَنا ، وآثارَ أقْدَامِ الإبِلِ واضِحةً على الرَّمْلِ ؟ » .

وكانَ الجَمَلُ على حَقٍّ ، إذْ أشْرَفُوا فى الحَالِ على مُنْخَفَضٍ فى الرِّمال ، وكانَ مُخَيَّمًا لبعضِ الأعْرَابِ فيه خيامٌ كَثيرةٌ وكَبيرةٌ ، وكُلُّها من نَسيجٍ صَنَعَتْهُ نِساءُ الأعْرَابِ من شَعْرِ الماعِزِ و (وَبَرِ) الجِمَال .

كانَ بَعضُ الرِّجَالِ جَالِسينَ أمامَ الخيامِ كأنَّهمْ يَنتظرونَ قُدُومَ شَخصٍ ما ، وكانُوا يَلبسونَ ملابسَ زَاهيةً جَميلةً .

فى تِلكَ اللحْظَةِ سَمِعَ مُحَمَّدٌ وَقْعَ حَوافِرِ حِصَانٍ .. وبعدَ بُرْهةٍ قَصيرةٍ (وقتٍ قليلٍ) وَصَلَ شابٌّ عَربىٌّ ، قَوىُّ البِنْيةِ ، تَبدو عَليه علاماتُ الفُروسيةِ ، وقَفزَ إلى الأرضِ صائحًا :

« وَجَدتُه ! .. وَجَدتُه !! » .

وفى الحالِ ، أخذَ الجميعُ يَستعدُّون للرَّحيلِ .

سألَ مُحَمَّدٌ « ما الخَبرُ ؟ ».

رَدَّ الجَمَل :

« إنَّهم قَدْ قَضَوا فَترةً فى هَذا المكانِ ، وقَدِ اسْتَنْفَدتْ غَنَمُهُمْ وإبِلُهُمْ كلَّ ما فيهِ من أعْشابٍ وحَشَائِشَ ، ولا بُدَّ أنَّهم أرْسَلوا هذا الشَّابَّ ليَبْحثَ لَهُمْ عَن مكانٍ آخرَ يتيسَّرُ فيهِ الماءُ والعُشبُ .. وقَدْ وَجدَ مَكاناً صَالحًا ؛ ولذلكَ تَراهُم يَستعدُّون للرَّحيلِ » .

أخذَ الرِّجالُ يَحملونَ أشْياءَهم فوقَ الجِمَال ، وكانَ أحَدُهُم يَحمِلُ الماءَ في (قِرَبٍ) مَصنوعةٍ من جِلْدِ الماعِز .

وكان مَتاعُهم كَمِيَّةً كبيرةً من السَّجاجيدِ والأغْطيَةِ الصُّوفيةِ ، وأباريقُ القَهوةِ والشَّايِ وأكْيَاسٌ مملوءةٌ بالخبزِ والجُبنِ والتَّمْرِ .

وسَارتِ القَافِلةُ ، وفي مُقدَمتِها الشَّابُّ مُمتطيًا جَوادَه ، تَتْبَعُهُ الجِمالُ ثم قُطْعَانُ الغَنَمِ والإبلِ ، يَقُودها شبابُ القبيلةِ ، وكانتِ القافلةُ تَسيرُ ببطءٍ ؛ لأنَّ الغَنَمَ لا تَستطيعُ الإسْراعَ في سَيرِها .. ثُمَّ إنَّها بينَ حينٍ وآخرَ كانتْ تَقِفُ لتأكلَ شَيئاً من الأعْشَابِ التي تَجِدُها .

وبينما الجميعُ كذلكَ ، إذْ توقفتِ الغنمُ عن الأكلِ ، ورفعتْ رؤوسَها ، على إثرِ سماعِ صوتِ الرياحِ ، مُنبئًا بهبوبِ عاصفةٍ رمليةٍ .

عندَ ذلكَ (بركتِ) الجِمالُ بسُرعةٍ وأقفلتْ عُيونَها لِتحميَها من الرمالِ ، وخفضتْ رُؤوسَها حتّى كادتْ أنْ تلمسَ الأرضَ .

أمَّا الأعرابُ فإنَّهم جَلسُوا بجَانبِ الجِمَالِ وغَطُّوا وجُوهَهم بعبَاءاتِهم ، وأمَّا الضَّانُ والماعِزُ ، فإنَّها تَجمَّعتْ ، وظُهورُها فى اتجاهِ الرياحِ .

وأخذَتِ العاصِفةُ تَزدادُ قوةً فى هُبوبِها ، فكانتِ الرِّمَالُ تَلْسَعُ كأنَّها شَرَرٌ مُتطايرٌ من النَّارِ .

وأصبحَ الجميعُ وكأنَّهم لا يَرَونَ شيئاً ولا يَستَطِيعونَ التنفُّسَ إلاَّ بمشَقَّةٍ كَبيرةٍ .

وعندما هدأت العاصفةُ وجد الجميعُ أنفسهم ، وقد كادت الرمالُ أن تدفنهم تحتها ولم يصلوا إلى المكان الذى خرجوا يريدون الذهاب إليه إلا قُبيل الغروب .

وهُناك أقامت النساءُ الخيامَ ، وبدأن فى تجهيز العشاء .

وحينما غابت الشمسُ اشتدَّ البردُ ، وبدأ محمدٌ يرتعش ، لاحظ ذلك بعضُ الأطفال فأخذوه إلى داخل إحدى الخيام ، وكان فى وسطها ستارٌ يقسمها قسمين ؛ ليجعل من الخيمة غرفتين للنوم ، إحداهما للرجال والأولاد ، والأخرى للنساء والبنات .

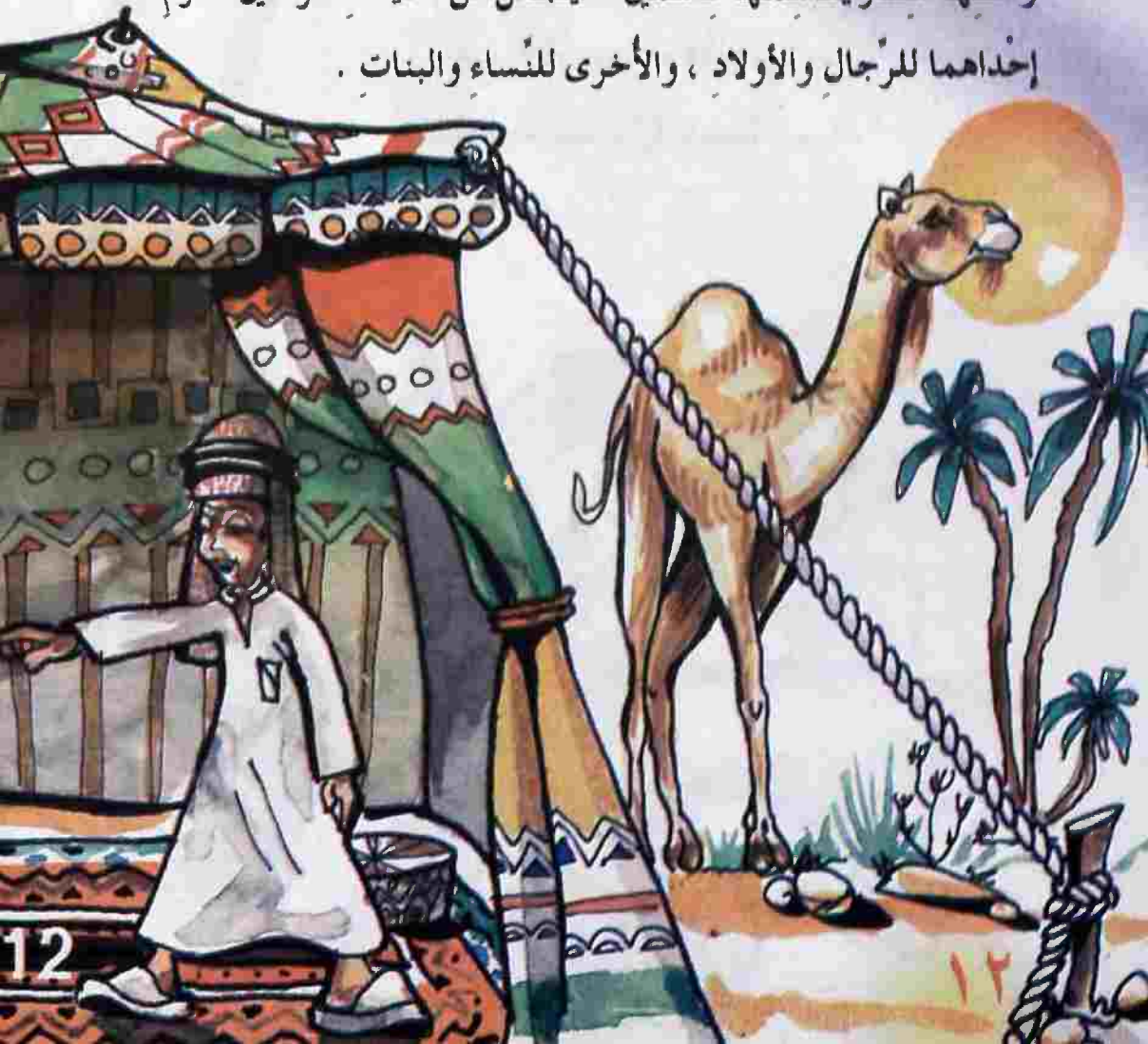

أمَّا الأرضُ فى الخيمةِ فكانتْ مَفْروشةً بسَجاجيدَ زَرْقَاءَ وحَمْرَاءَ .

وبعدَ قليلٍ كَانوا جَميعاً قَدْ شَعَروا بجُوعٍ شَديدٍ ، فأكَلوا ، وتناولَ مُحَمَّدٌ نَصيبَه من البَلحِ ولَبنِ الماعِزِ والجُبنِ وبعضِ الكَعكِ الصَّغيرِ المَصنُوعِ من دَقيقِ الشَّعيرِ .

وبعْدَ العَشَاءِ قالَ الرَّجُلُ الكَبيرُ فى الخَيمةِ للأولادِ :

« لَقَدْ جَاءَ وَقْتُ نَومِكُمْ » .

وفى الحالِ لَفَّ كُلٌّ مِنْهم نفسَه فى عَباءتِه وقَامُوا جَميعاً .

أمَّا مُحَمَّدٌ فإنَّه بَقِىَ مُدَّةً ينظرُ إليهِمْ ثُمَّ خَرجَ بهدوءٍ عائِداً إلى سَفينتِه .

ولمْ يَكَدْ يَضَعُ قَدَمَه على السَّفينةِ حتَّى أقبلَ عليهِ سائرُ الحيواناتِ لِيَروا مَنْ مِنْهُم سَيَكُون عليه الدَّورُ .

ونادى مُحَمَّدٌ على القِطِّ ، وطلبَ مِنْه أن يَخْتارَ وَرَقةً من الكِيسِ ، فإذَا بِها اسْمُ الأسَدِ .

فَرِحَ الأسَدُ فَرَحاً شَديداً ، وصَاحَ قائِلاً :

« هَـذا بَديـعٌ جِـدًّا .. سـأتولَّى قِـيـادةَ السَّفينةِ ، فاذْهَبُوا إلى فِراشِكُمْ ، وسأُناديكُم عِنْدما نَصِلُ إلى بِلادِي » .

الناشـــــر : دار الرشـاد
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٩٨ / ٨٢٨٢
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 68 - 8
الطبـــــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــــوان : ١٠ ، ٧ ش السـلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : آرمس
العنـــــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفـــــون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م